المقصدية في الخطاب السردي لمرحلة التعليم المتوسط
نص "الأرنب والأسد" لعبد الله بن المقفع أنموذجا

الباحثة فطومة حاج علي
طالبة دكتوراه – جامعة تلمسان-

تمهيد:

إذا كان البنيويون، قد أهملوا الظواهر الكلامية بعد أن اعتبروها مجرد أشياء عارضة وفردية ولا تصلح لأن تكون موضوعا للبحث اللغوي، فإن التداولية قد أعادت هذه الظواهر إلى دائرة اهتمام اللغويين، حيث عُنيت بالكيفية التي تستعمل بها اللغة في الحديث، وبالتالي « أصبح الاستعمال هو مرجع العلامات ومعه المستعملون لهاته المرجعية خلافا للتركيب (***Syntaxe***) أو الدلالة (***Sémantique***) اللذين يقصيان الاستعمال من مرجعيتهما»[1]، وبذلك قد استحضرت التداولية الإنسان في اللغة، واستحضرت معه قيمة التفاعل التي تعتبر أساسا حواريا يتضمن الفعل ورد الفعل بين المستعملين، بما يحقق القيمة الاستعمالية للعلامات بين أفراد المجتمع[2].

وقيمة هذا التفاعل لا تقل حتى وإذا كان هذا الحوار ضمنيا، ونقصد به الرسائل التي يرسلها الباث إلى المتلقي كتابة لا شفاهة التي لا تبدو فيها ردة فعل المتلقي جلية كما نراها من خلال الحوار المباشر. وإذا ما ركزنا تحديدا على ما يُوجّه للطفل من أدب شعره ونثره، فإن الباث ولا شك لا يمكنه أن ينطلق من فراغ، أو أن يؤسس كتاباته على غير عمد، فهو يدرك تماما أنه يتوجه إلى متلقٍ له خصوصياته النفسية وميزاته العقلية والتي تخضع لمراحله العمرية.

سنركز في مقامنا هذا على الخطاب السردي في كتاب اللغة العربية لمرحلة التعليم المتوسط، من خلال نص (الأرنب والأسد) لـ "عبد الله بن المقفع"[(*)]،(*) لنستشف **مقاصد** المؤلف في توجيه رسالته إلى المتلقي عن طريق شخصيات القصة واستراتيجياتها التخاطبية قي الإقناع والتأثير.

1-مضمون النص:

ينقل لنا النص أحداثا وقعت في أرض كثيرة المياه والعشب، بطلها الأسد المتسلّط الذي لم يكن يرحم أحدا من الحيوانات لكنه كان ساذجا ومغفّلا، فهزمه الأرنب شر هزيمة. لقد كان يهدد هذا الأسد أمن حيوانات الغابة، فاتفقوا جميعا على أن يبعثوا له بدابّة ليتغذى عليها، دون أن يكلّف هو نفسه عناء ذلك، فقالت له: «إنك لتصيب منا الدابّة بعد الجهد والتعب، وقد رأينا لك رأيا... فإن أنت أمّنتنا... فلك علينا في كل يوم دابة نرسل بها إليك في وقت غذائك»، فسرّ الأسد بهذا القرار، وقد أصابت القرعة أرنبا فصارت غذاء الأسد، لكنها طلبت من الحيوانات أن يمهلوها بعض الوقت حتى تنفذ الخطة التي تريحها والحيوانات من الأسد فقالوا لها: «وما الذي تكلّفيننا من الأمور؟» قالت تأمرون الّذي ينطلق بي إلى الأسد أن يمهلني ريثما أبطيء عليه بعض الإبطاء، فقلن لها: «ذلك لك!» فانطلقت الأرنب متباطئة حتى تجاوزت الوقت الذي يتغذى فيه الأسد ولما وصلت إليه سألها من أين أقبلت؟ فإجابته إنها رسول الوحوش إليه وقد بعثها ومعها أرنب إليه، لكن أسدا آخر قد تبعها وأخذ منها غذاءه وقد شتم الملك وسبّه فطلب ملك الغابة منها أن تأخذه إلى هذا المتغطرس ليلقنه درسا فأخذته إلى جُبٍّ به ماء صاف، وما إن انعكست صورة الأسد والأرنب على الماء حتى وثب ليقاتله، فغرق في الجُبّ فأسرعت الأرنب لتخبر الحيوانات بذلك.

2-مقاصد الخطاب في نص"الأرنب والأسد" لعبد الله بن المقفع:

أ. مفهوم القصدية:

لا يختلف اثنان على أن المتلقي حاضر في ذهن الباث في أثناء إنتاج الخطاب وهو يدرك تماما لماذا يكتب، ولأجل من يكتب، وحول ماذا يكتب. وعلى هذا الأساس عرّفت القصدية بأنها قدرة العقل على أن يوجه ذاته نحو الأشياء ويمثلها وهي بذلك حالة عقلية لأنها تكون حول شيء ما

(***About Some Thing***)،

وموجهة نحو شيء

(***Directed Towards Some Thing***)،

وتمثل شيئا ما

(***Represents Some Thing***).

ويتضح من خلال ذلك أن القصدية خاصية عقلية وأنها أيضا تمثيل عقلي[3]. وفي هذا السياق يرى سيرل «أن المقاصد ذات تكوين بيولوجي ولها اطر معينة في ذهن المرسل، وعليه ففلسفة اللغة عنده تعد فرعا من فلسفة العقل»[4]. ولهذا فإن كل فعل بشري، فعل قصدي لديه مدركه الخاص ولا يُفصح عن نفسه إلا حينما يقصد شيئا محسوسا، ويستخلص معناه من الواقع، ويتم التعبير عنه بكلام محدّد المعنى[5].

لكن ما أهمية فهم المقصد في تحليل الخطاب؟

ب. أهمية المقاصد:

إن ما يدور في خلد المتكلم باستمرار في أثناء إصداره لملفوظاته يرتبط «بكل ما من شأنه أن يحفز المتكلم على تحريك العملية التبليغية، سواءا ارتبط ذلك بم تم التصريح به من ملفوظات أو لم يرتبط...»[6]، كما أنه لا يمكن الحديث عن انسجام الخطاب إذا لم يتم التحرر من الخطابات ذاتها، والركون إلى معرفة القصد الذي أصدر هذه الخطابات. وتقول آن روبل (Anne Reboul) في هذا الصدد: «إنه لمن تحصيل الحاصل أن نقول أن مفهوم الحالة الذهنية، أو بمعنى أدق القصد يُشكل محور إنتاج وتأويل الملفوظات والخطابات»[7]. كما تُصرح بأن تأويل الخطابات يتوقف بشكل نهائي على تأويل الملفوظات الذي يعتمد فيه وبصفة كليّة على معرفة القصد[8]. ويشير محمد الأخضر الصبيحي إلى أن: «للقصد تأثيرا في بنية النص وأسلوبه، ذلك أن الكاتب يبني نصّه بناء معينا، ويختار لذلك الوسائل اللغوية الملائمة بما من شأنه أن يضمن تحقيق قصده»[9].

ففيما تتجلّى مقاصد ابن المقفّع في النص "الأرنب والأسد"؟

ج. تجليات المقاصد في النص:

1. المقاصد الموضعية وآلياتها:

إن النص مأخوذ عن كتاب (كليلة ودمنة) لمترجمه عبد الله بن المقفع، وقد جاءت نصوصه جميعا على ألسنة الحيوانات المؤنسنة لتنطق بالحكمة والأدب. وهذا ما أشار إليه مُقدم الكتاب علي بن الشاه الفارسي في قوله: «... وضمّن تلك الأبواب كتابا واحدا، وسمّاه كتاب (كليلة ودمنة) جعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطير: ليكون ظاهره لهوا للخواص والعوام، وباطنه رياضة لعقول الخاصة وضمنه أيضا ما يحتاج إليه الإنسان من سياسة نفسه وأهله وخاصّته، وجميع ما يحتاج إليه من أمر دينه ودنياه، وآخرته وأولاه، ويحضّه على حسن طاعته للملوك وتُجنبه ما تكون مجانبتُه خيرا له. ثم جعله باطنا وظاهرا كرسم سائر الكتب برسم الحكمة: فصار الحيوان لهوا، وما ينطق به حكمة وأدبا...»[10].

مقصدية العنوان:

وإذا عدنا إلى النص الذي بين أيدينا "الأرنب والأسد" نجد أن بطليْها الرئيسيين من مركزين مختلفين: الأسد باعتباره ملك الغابة وقائد الوحوش وراعيها والأرنب من عامة الحيوانات ورعيّة الأسد. ففي هذه الثنائية (أرنب/أسد) اختلاف في موازين القوى، لكن قد نتساءل لماذا قُدمِت شخصية الأرنب في العنوان؟ أو بعبارة أخرى ما هو القصد من وراء هذا التقديم؟

لا يُقدّم شيء إلا لأهميته، وفي ذلك إحالة إلى أن الأرنب رغم مركزه المتواضع إلا أنه انتزع لنفسه مكانة استحق بها هذا التّقديم، وكأنَ الكاتب يخبرنا ضمنيا بأن هناك سببا لذلك وستكتشفونه في النص. وفعلا فقد كانت الحيلة التي دبّرها الأرنب للقضاء على الأسد ليستريح والحيوانات من بطشه وجبروته هي السبب، وقد فعلت ما لم تفعله القوّة.

قصد الإخبار:

يُشكّل الإخبار القصد من التخاطب بصفة عامة؛ « وهو من الأسس التي يتجسد بواسطتها الفكر وينتقل إلى المتلقي، حيث يلتقي مفهوم الإخبار بمفهوم التواصل الذي يتحدّد في النمط الخاص للعلاقة الداخلية بين المتكلم والمخاطب، وهو إيصال الخبر حسب رأي (ديكرو Ducrot)، بمعنى تزويد المخاطب بالمعارف لم يدركها سابقا»[11]. وقد يُلقي المتكلم بالخبر على المتلقي رغم علم هذا الأخير به بغرض التصريح بأنه (المُتكِلم) على علمٍ به أيضا. وهذا ما يُصطلح عليه "**لازم الفائدة**"[12].

والنص الذي بين أيدينا حافل بالمواقف الإخبارية والتي تتعدّد معانيها من موقف لآخر، من ذلك ما قالته الوحوش للأسد: «إنك لتصيب منا الدابّة بعد الجهد والتعب، وقد رأينا لك رأيا، فيه صلاح وأمن لنا، فإن أنت أمّنتنا ولم تخفنا فلك علينا في كل يوم دابّة نرسل بها إليك وقت غذائك»[13].

ولقد تتبّعت الوحوش **مسارا حجاجيا** من أجل **إقناع** الأسد برأيها، فبدأت بإخباره بأنه ليصيب الدابّة بعد الجهد والتعب وهو على علم بذلك، مُجسِّدة "لازم الفائدة"، بعدها قدّمت معطيات وظّفت فيها مزيجا من معاني الإخبار؛ كالطلب في قولها: «فإن أنت أمّنتنا ولم تخفنا»، وأصل الكلام فيه أمر ونهي: أمر بالأمان ونهي عن التخويف، لكن مراعاةً لمركز الأسد باعتباره الملك، احترمت الوحوش **طقوس المحادثة** وهو أمر مقصود أيضا من أجل إقناع الأسد بتقبل النصيحة التي جاءت بطريقة غير مباشرة. وقي موضع آخر الذي يُجسّد الحيلة التي ابتكرها الأرنب من أجل القضاء على الأسد في قوله: «أنا رسول الوحوش إليك وقد بعثتني ومعي أرنب لك، فتبعني أسد في بعض الطريق، فأخذها مني وقال: أنا أولى بهذه الأرض وما فيها من الوحوش، فقلت له: إن هذا غذاء الملك أرسلت به الوحوش إليه فلا تغضبنّه فسبك وشتمك! فأقبلتُ مسرعة لأخبرك»[14].

ولقد اتبع الأرنب في حيلته أسلوب الندّ للندّ، وكأنه يُخبر الأسد بأن هناك من هو أقوى منه، فلا داعي للغطرسة والتجبّر. وفعلا قد أثار ذلك غضب الأسد، لأن الأرنب عرف كيف يصل إلى نقطة ضعفه، وتحقّق بذلك ما كانت الوحوش تتمنّاه.

قصد الإقناع:

في الحقيقة، فإن هذا القصد هو غرض كل النص وحتى في قصد الإخبار هدف الإقناع الذي يُبنى أساسا على الحجّة والعرض والشرح. والمثال الذي ذكرناه آنفا يُجسد لنا كل هذه الآليات، فهو يتضمّن العرض والشرح لأن الأرنب في موقف تبرير بسبب تأخّره عن إحضار الغذاء للأسد، وهو جواب سؤال الأسد: «من أين أقبلت؟» كما تخلل ذلك "**روابط حجاجية**"؛ وهي «الوحدات اللغوية أو المورفيمات التي تقيم علاقة بين جملتين...» [15]، مثل حروف العطف كالواو، والفاء.

2-المقاصد الإجمالية وآلياتها:

إن كتاب (كليلة ودمنة) –وكما ذكرنا آنفا–جاء كله على ألسنة الحيوانات، إذ شخّص المؤلف البهائم والعجماوات وأسقط عليها صفات مختلفة وجعلها تتصرّف وتتحدث كالإنسان. تُرى لما هذا التلميح في شخصيات كليلة ودمنة؟ لا يمكن الإجابة على الإشكال إلا إذا عدنا إلى **السياق** والظروف المنتجة للنص. والسياق حسب (جان ديبوا Jean Dubois) هو «مجمل الشروط الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي، واستعمال اللغة [...] وهي المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقي والوضعية الثقافية والنفسية والتجارب والمعلومات الشائعة بينهما»[16].

إن الزمن المرجعي لـ (كليلة ودمنة) يعود إلى العصر العبّاسي الذي عاش فيه ابن المقفع؛ أي «في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة (106هـ/143هـ)»[17]، ولقد انتشر فيه الفساد الاجتماعي والسياسي، فأراد ابن المقفع من خلال ترجمة كتاب (كليلة ودمنة) تبني فلسفة "بيدبا" مؤلف الكتاب في إصلاح الوضع السائد في زمانه والناتج عن فساد في الحكم[18]. ومن أجل ذلك وظّف ابن المقفع **الاستراتيجية التلميحية** حتى يكون أكثر بلاغة وتبليغا من جهة، ويتقي شرّ حكام وملوك العصر العبّاسي من جهة ثانية.

وتتجلّى هذه الإستراتيجية في توظيف تقنية الحوار والمثل، فاعتمد أقنعة الحيوانات باعتبارها دولا للتعبير عن مقصدّيته المضمرة وجَعْلها تتحاور فيما بينها وتنطق بالحِكم والأمثال التي تُعد من مقوّمات استراتيجيته الحجاجية أيضا حتى «تكون أكثر وقعا على المتلقي، لخّص من خلالها أفكاره الفلسفية والإصلاحية والأخلاقية»[19].

وفي ضوء هذه الدراسة الموجزة، يمكننا القول: إن لصاحب خطاب ما، إلى جانب مقاصده التواصلية الموضعية من كل قول ينتجه، مقاصد تواصلية إجمالية تتعلقّ بمجموع خطابه والتي تتجلى لنا من خلال السياق. وترتبط المقاصد ارتباطا وثيقا بوسائل تحقيقها وهي الاستراتيجيات التي يتبنّاها المتخاطبون لبلوغ مقاصدهم، وبالتالي إنجاح العملية التواصلية.

الهوامش والإحالات:

(1) - محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية إفريقيا الشرق، ب.ط، الدار البيضاء، المغرب، 2010م، ص39.

(2) - ينظر: المرجع نفسه ص39.

(*) - للعودة إلى النص ينظر: اللغة العربية للسنة الثالثة من التعليم المتوسط، الشريف مريبعي وآخرون، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، ب.ط، الجزائر، ص137.

(3) - ينظر: القصدية تعريفها وتاريخها، عن موقع: ta5atub.com

(4) - نقلا عن: تجليات مفاهيم التداولية في التراث العربي، موسى جمال، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2009/2008.

(5) - ينظر: " المقصدية، نظرية المعرفة وآفاق اللغة والأدب"، سلطان الزغلول، 2012، عن موقع: ads.alrai.com

(6) - عمر بلخير، إجراءات التحليل التداولي، عن موقع: omarbelkheir.woedpress.com ،

مقال منشور بمجلة الثقافة، مجلة فصلية ثقافية تصدر عن وزارة الثقافة، العدد 19 أفريل 2009

(7) - نقلا عن المرجع نفسه.

(8) - ينظر: المرجع نفسه

(9) - مدخل إلى علم النص، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2008، ص97.

(10) - بيدبا الفيلسوف الهندي، ترجمة عبد الله بن المقفع، كليلة ودمنة، المطبعة الأميرية ببولاق، ب.ط، القامرة، 1937م، ص40

(11) - إيدير إبراميم، القصدية في"الأدب الكبير" لابن المقفع، دراسة تداولية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، ص35.

(12) - ينظر: المرجع نفسه، ص 36.

(13) – كتاب اللغة العربية للسنة الثالثة من التعليم المتوسط، ص137

(14) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها

(15) - ينظر: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ترجمة: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2008، ص26

(16) - إيدير ابراميم، القصدية في "الأدب الكبير" لابن المقفع، ص99

(17) - حكيمة حبي، السياق التداولي في "كليلة ودمنة" لابن المقفع، مذكرة لنيل شهادة ماجستير، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، ص62.

(18) - ينظر: " استراتيجيات التخاطب ومقاصد الخطاب في كليلة ودمنة لابن المقفع|، عن موقع: omarblkhzeir.wordpress.com مقال منشور بمجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، العدد 3، 2008.

(19) - حكيمة حبي، السياق التداولي في " كليلة ودمنة"، ص: 109.